الفصل السابع
أزمة أحمد

كان أحمد ينتمي الى أسرة احترفت القضاء بضعة أجيال من ناحيـة الأب، وكانت فرعا مثقفا من عائلة تجارية معروفة كبيرة العدد متـشابكة الصلات أنجبت محامين وشعراء وأطباء وضباطا في الجيش. ولقد أثر هذا الانتقال الى جبهة جديدة في المجتمع في تشكيل صفات أفرادها وفي علاقاتهم مع الناس، وفيما بينهم. كان السؤال الذي يراود أذهانهم في كل خطوة يخطونها هي: "أين يكمن الشرف؟" ولم يكونوا يسألون كما يفعـل أقرباؤهم "أين يكمن الربح؟". ومع ذلك كانت روابطهـم وثيقـة، شـبه عشائرية، سريعون الى النجدة والمعونة في الضائقات، يقفون في صـف واحد في رعاية ذوي قرباهم: تلك الصفات التي فقدها المجتمع فيما بعـد كانت أصيلة حية عندهم.

وقد كسب أحمد عن والدته صفاتها الأسرية التي كان منهـا علمـاء ومجاهدون، وكانت هي تتحلى بمناقب نادرة، صائبة الـرأي، فـصيحة، دقيقة التعبير، واسعة الاطلاع على كتب الفقه والشعر القديم. لقـد تعلـم أحمد أن يتساءل حتى حين كان صغيرا "أين يكمن العدل؟" وبـدا حبـه للإنصاف في سن مبكرة، حتى أن والدته كانت تسلمه القـسمة فيعطـي الحصص لإخوته بالعدل وكأن يده ميزان دقيق، وينتظر هو ليحصل على الحصة الأخيرة التي تبقى، بينما كان أخوه عبد الوهاب الذي يصغره بعام في شغب دائم لينال أكثر من حقه.

وحين أنهى دراسته الثانوية تقدم الى مسابقة البعثات الـسنوية فلـم ينجح؛ وقرر والده إرساله للدراسة في الخارج ولو في التـضييق علـى نفسه. كان في حيرة من أمره أي فرع يختار، ونصحه أعمامه أن يدرس

الطب لأنها مهنة حرة موثوقة معطاء. وكان والـده يريـده أن يمـتهن القضاء ولكنه فشل في اقناعه. وأخذ يعاتبه بمرارة الأب الذي يريد لابنه المهنة الأفضل، الجديرة به، الملائمة له كل الملاءمة. ويذكر أحمد بمـا يشبه حلما صافيا اذ كان طفلا صورة والده يوم طرق البـاب، ونـاول غريب أمه سدر كنافة واسعا شهيا أبرقت له عيون الصغار الذين لحقـوا بأمهم يستفسرون عن الطارق الذي سأل "أهذا منزل عزيز القاضي؟" فلما أجابت الأم بالإيجاب دفع السدر الى داخل المنزل قائلا "هذا من فلان."

ويذكر أحمد الطريقة التي اندفع بها والده من غرفته بمنامته، يحمـل السدر ويهرول خلف الرجل في الشارع المترب المطل على الغوطة وهو يناديه بأعلى صوته ويهدده بأنه سيرميه ويمرغه بـالتراب ان لـم يعـد ويأخذه. ويذكر كم كان وجه والده مربدا ثائرا وهو يزمجـر "يريـد أن يرشوني بسدر كنافة هذا الحقير؟ لو كان نظيفا لما فعـل ذلـك. انتظـر ياندل. سأضاعف عقوبتك في المحكمة ولن تنجو من يدي."

ويذكر أحمد أنه ضرب ضربا موجعا من والده وهو صبي للشيطنات التي يقترفها الصغار: السطو على البساتين المجاورة وسـرقة الجـوز، والتغيب ساعات طويلة عن المنزل، والشجار مع أخيه عبد الوهاب الذي كان يملك من الجرأة على المغامرات ما لا يملكه أحمد. فهو الذي يخطط أما أحمد فانه يشترك معه بحكم الرفقة التي لا بد منها لأخيه، بينما تقف أختهما الكبرى حياة في الخارج تتمتم بآية الكرسي سبع مرات حتى يحفظ الله أخويها وينجيهما من شر الناطور.

قال له والده: ليس الحكم على الناس سهلا يا بني، انه يحتـاج الـى ذكاء نادر ونزاهة وفهم عميق للطبيعة البشرية.. انه عالم غني، وأنـت

مؤهل له.. ان تخلي أمثالك عن هذه المراكز قد يوقعها بأيد غير أمينـة فيهتز ميزان العدل بين الناس.

ولما وجد أحمد راغبا عن هذا الأمر بدأ يزين له مهنة الطب، فهـي غير مرتبطة بإرادة أحد، لا بدولة ولا بـسلطة، وهـي مـضمونة، لأن المرض لن يتوقف، وربحها موفور حتى لو كان متواضـعا كالـدكتور عادل، نصف مرضاه مجانا والنصف الآخر كيفما كان الحال.

أما أحمد فلم يكن يطمح الى تأمين وضعه فحسب، فاذا كان عليه أن يسافر الى الخارج، ويكلف والده النفقات الكثيرة فليدرس ما يساعد علـى تطوير بلده. كان إحساسه بالعدل متطورا الى الدرجة التي يخـشى بهـا الحكم على الناس، وكان يكره مهنة الطب لأنه لا يحب أن يغتنـي مـن أمراض الناس، حتى ولو كان منقذا لهم، ولأن الطبيب يسد عجـزا، ولا يملك قدرة على تطوير بلده تكنولوجيا.

سأله والده باستياء:

-ماذا اذن تبغي أن تكون؟

-أريد أن أصبح مهندسا.

وارتاح الوالد للإختيار:

-مهندسا معماريا أم مدنيا؟ هذا حسن أيضا، المهندسون والأطباء هم من بين المثقفين أكثرهم حرية واستقلالا وربحا.

-لا هذا ولا ذاك، البناء يجمد امكانية البلد ولا يطورها.. أريـد أن أصبح مهندسا بتروكيمائيا.

كان هذا الإختصاص جديدا، وليس فـي البلـد مـن مؤسـسات أو إمكانيات لتصنيع البترول. فكان اختيار أحمد موضع ريبة وتساؤل مـن والده الذي تجهم وجهه وهو يرى ولده يغامر بمستقبله.

-وماذا تعمل حين تعود؟

-لا بد أن البلد ستكون بحاجة الى خبرتي حين أعود.

-ربما استقبلتك الدولة بالطبل والمزمار وأنشأت لك المـصانع كـي تستفيد من خبرتك الفذة. كن واقعيا يابني!

"كن واقعيا.. لا تسبق زمنك.. ولاتكن مغامرا"..

سمع أحمد هذه النصائح من الأعمام، والرفاق، ولكنه كان أبدا يصر على اختياره وعيناه ترودان المستقبل، ولو أنه يعلم بـأنهم أكثـر منـه تحسسا بمواقع أقدامهم.. ووقفت والدته تشجعه: "أدرس يـابني مـايلائم ميولك. أنت رجل تعرف صالحك.."

واقتنع الوالد أمام صدق عزيمة أحمد:

-إفعل ما تريد، فقط لا تعد الي ومعك أجنبية.

وتردف الأم مثنية على كلام زوجها:

-نعم لاتأتيني بأجنبية.. بنات بلدنا جمـيلات محتـشمات وليـست الأجنبيات بأفضل منهن.. بنت بلدك مستورة تتفاهم معهـا.. كـل مـن تزوجوا من الخارج لم يرتاحوا في عيشهم.. أنظر الـى زوجـة خالـك صبري.. أوقعته في الديون.. قلوبهن لا تعرف الشفقة على الرجل. يردن أن يعشن في ترف فوق إمكانية أزواجهن.. أنيقات مـسرفات.. زوجـة صبري تغير كريتون الدواوين والستائر مرتين في العام وقبل أن تبلـى، وثيابها جاهزة من أوربا، ولو ترك لها الحبل على الغارب لغيرت أثـاث المنزل كل عام.. هذا ماهن ماهرات به.. أما التعاطف الزوجي ومشاركة الرجل همومه وأعباءه فلا يعنيهن.. حتى الشؤون الصغيرة تـؤثر فـي سعادة الانسان.. انهن لايتقن الطبخ العربي، وأكلهن شرائح لحم وخضر مسلوقة.. خالك محروم الكبة منذ أن تزوج لايأكلها الا في بيتي!..

وقبل أحمد يد والدته ضاحكا وقال:

-لاحرمنا الله منك يا أمي.. لا أتمنى من الله الا أن أقع على مثيلة لك تكون لي زوجة.. ولكن هذا أمر لايشغل فكري قبل أن أنجز المهام الأخرى، فلا تخشي علي.

وسافر أحمد الى فرنسا ولم يلبث بعد مضي بضعة أشهر أن بعث الى والده برسالة يطلب فيها أن يكف عن مده بالنفقات لأنه وجد عملا يدبر به شؤونه.

وتقلب أحمد في أعمال شتى من عامل الى ندل في مطعم الى قاطع تذاكر، الى مدرس خاص للعربية الى مترجم في وكالة صحفية، الى مدرب في مؤسسة صناعية، الى مساعد في الجامعة نفسها. وكان على وشك الإقتران بطالبة جامعية حين جاءه نعي والدته فكان حزنه عليها من اللوعة بحيث أن طيفها أصبح شديد اللصوق به، وأصبح لنصائحها وكلماتها من القدسية في نفسه ما جعله ينظر الى الفتاة التي اختارها بعين أخرى غير تلك التي رآها فيها لأول مرة ، وكانت تتكشف له بعيوبها الصغيرة يوما بعد يوم وتبدو له وقد فقدت رونقها السابق الذي راعه لأول وهلة كصباح نقي غارق في حلة ثلجية تكسو الأرض في مستهل الشتاء. وأعفته الفتاة من تأنيب الضمير في أن يبدأها هو في المقاطعة حين أعلمته بأنها تفضل عليه شابا من جنسها، فهي لاتحتمل غيرة الشباب الشرقيين وليست مستعدة أن تحيا حياة الحريم. فتنفس الصعداء وقرر أن لايتورط أبعد في وعد أجنبية بزواج ويكفيه منها ذلك العطاء العابر ريثما يعود الى وطنه.

وكم من مرة حمد للأقدار أنه لم يربط اليه مصير امرأة كائنة من كانت حين صادفته صعوبات ايجاد العمل، وحين عاد مرة الى وطنه

فتلقفته يد حاكم وأودعته السجن عاما بأكمله. وكان هذا لخيره ، اذ دفعـه لاختصاص أعلى. وها هو ذا يعود بعد اثني عشر عاما ليجد أن الوضع في وطنه على حاله لم يتغير. تناوب على بلده مختلف الحكومـات بـين برلمانية ودكتاتورية وكلها كرست التخلف. لامصنع أنشئ ولا بـصيص أمل أنه سينشأ عن قريب. إرتقت بعض مصانع حرفية واشترت بـضع آلات من أوروبا. كان التطور بطيئا بالطرق الرأسمالية لغيـاب تمركـز رأس المال. فالمشاريع المنتجة هزيلة وكفاءتها ليست عالية. دمشق بلـد مستهلك وهي ليست مغرمة الا ببناء البيوت؛ تغيرت معالم الشوارع، كان منزلهم الأرضي يطل على بساتين الغوطة، فاذا بالأبنية الجديدة تحجـب عنه المناظر الحلوة واشراقة الشمس.

وأدرك أحمد بعد فوات الأوان أن كادرا علميا يتكون قبل أن تكـون هناك مؤسسات بحاجة اليه هو عبث لاطائل منه. انه مهدد بالبطالة أو أن يعمل في غير اختصاصه. هدرت السنوات الطويلة التي شق فيها طريقه الى المعرفة ليكون نافعا فاذا به أقل الناس نفعا وقدرة على الحياة. طلب عملا في الجامعة فقيل له هناك شاغر فقط للغة الفرنسية وحسب. اللغـة الفرنسية بعد أحد عشر عاما من الاختصاص!

وأحاط به رفاقه:

-إذهب الى كاليفورنيا، فهناك يحتاجون الى خبرتك.

-قدم طلبا الى اليونسكو.

-درس اللغة الفرنسية، ماذا يهم؟ لاتبق عاطلا.

-لو أنك أصغيت الى نصائحنا!

كان أحمد يدور في دوامة تلك النصائح دون أن ترتاح نفسه لأي من الحلول. وكان يشعر بكآبة كبيرة ووحشة طاغية لرحيل والدتـه دون أن

يراها في أيامها الأخيرة ، ويتزود منها بالـشجاعة والـرأي الـصائب والحنان فترتاح نفسه وتنجلي غمته. انه لايريد أن يعيش غريبـا طـوال حياته ملتوي اللسان، ولا يريد أن يخدم بعقله وخبرته الاّ بلاده، ولا يريـد أن يتطفل على عمل ليس من اختصاصه في سبيل العيش.

ويسير في شوارع دمشق وأزمته تعمق يومـا بعـد يـوم، ويقابـل المسؤولين ويعود بالفشل تلو الفشل، ويبدو له كأنما ينتـصب فـي جـو المدينة مارد عدو لكل تقدم. ليس له حصن ولا يختفي في قمقم، ولكنـه منتشر في كل مكان ، يحس به في الوجوه الحاسـدة العدائيـة لرجـال غيورين على مراكزهم، وفي الوجوه غير المبالية لعامـة النـاس. فـي احتلال السيارات لأرصفة الشوارع، وفي أكوام الزبالة التي تتناثر هنـا وهناك، وفي الحفر التي تنثل لاصلاح الأنابيب والكابلات وتبقى الشهور تلو الشهور دون ردم، وفي أباجور تلك النافذة الذي خلعت الريح أعـلاه وبقي معلقا يهدد كل مار بدق عنقه، وفي ذلك الماء ينـصب فجـأة مـن احدى الشرف، وفي اندفاع ذلك السائق بسيارته لايريد أن يتوقف لعابري الطريق ولو كانوا أطفالا يخرجون من مدارسهم، وكأنما أرواح النـاس لاتساوي الدقيقة التي يتكلف فيها الانتظار.

ويكاد أحمد يصطدم بسيارة مسرعة تخرج فجأة من المنعطف بعد أن كان قد عبر نصف الطريق، ويشتم التخلف والمتخلفـين الـذين اقتنـوا السيارات، وتحمل الريح شتيمته أدراج الرياح.

لماذا كل الناس أقدر منه على الحياة؟ ان بائع الفلافل هذا الذي توقف أمام دكانه ليشتري منه سندويشة يتبلغ بها قد يشتري ذات يوم سـيارة أو طابقا في أبي رمانة، وهو يستطيع أن يبدو أمام الناس بثيـاب مهترئـة لايخجل منها، أما هو أحمد، فكيف يسير في الطرقات ان اهترأ بنطاله أو

خفق نعل حذائه؟ بل أصبح احتمال أن يهترئ بنطاله ويتمزق في الطريق كابوسا يهدده في أحلامه. ومن يصدق أن صاحب محمصة الـبن الـذي يسكن في الطابق الذي يعلو منزل والده يملك سيارتين وقد اشترى الطابق من ساكنه القديم بخمسين ألف ليرة؟ وأخوه عبد الوهاب الذي دخل الكلية العسكرية لأنه لايتحلى بفضيلة الصبر والجلد على الدرس يسير قدما في الجيش لايلوي على شيء يرتقي من درجة الى أخرى دون أن يغبر قدمه في معركة اللهم الاّ الإشتراك بلعبة الإنقلابات. وهذا الذي يجـر عربـة الحمضيات في الطريق سيرتقي سلم الثراء سريعا ولا يلبـث أن يـوفر مايستطيع به أن يستأجر تخشيبة يرصف بها ثماره، ثم تتحول دماثته الى عجرفة وسعره يصبح ضعفين، ويرفض المساومة ولا يبيع الا الذوات.

ويضيق صدر أحمد:

-ما أسوأ ما توزع به ثروة البلاد!

وعلى القمة، يقف التجار الكبار، يزيد ربحهم بقدر مايزيد رأسمالهم، وتنمو في البلد علاقات الاحتكار. أميون قد يصلون ويصومون ولكـنهم لايجدون ضيرا في سلخ جلود المشترين. ويتساءل أحمد: "أين مكانك ان لم ترعك الدولة ومؤسساتها؟ انك لاتستطيع أن تفتح دكانا حرفيا وتبدأ به عملا مستقلا".

وأحاط به أصدقاء قدامى كل يحاول أن يجره الى الحزب الذي ينتمي اليه، وأدرك أحمد منذ اللحظة الأولى أن جميع قادة الأحزاب في سـوريا لاينتمون الى الطبقة التي يتحدثون باسمها، وجميعهم قـد بـرزوا مـن صفوف البرجوازية الصغيرة، وكان من أبرز ما يميـز الحزبيـة فـي سوريا أنها تنمو بقناعة ذهنية أكثر مما تنمو من مصلحة طبقية، ولـذلك فانها كانت تتجاذب المثقفين، فتعددت الانتماءات حتى في الأسرة الواحدة.

وكان أقرب رفاق أحمد اليه بشير سالم المحامي، وكان بينهما حوار كثير. لقد أقنعه عن طريق أزمته أن البلد لايمكن لها أن تتطور الاّ بحكم شعبي، ومنه استعار أوائل الكتب الماركسية التي قرأها، ولكن بقدر ما كانت تلك المبادئ مغلقة في جوهرها عن ذهن الأستاذ بشير بقدر ماكانت واضحة جلية لأحمد الذي مارس العمل في المصانع وأدرك لاإنسانية العلاقات الرأسمالية، وخصوصا حين تبلغ مرحلة الإستعمار والإحتكار. اقتنع أخيرا بأن بلاده ان كانت ستتطور فعليها أن تبدأ التصنيع على أساس اشتراكي علمي.

لقد أصبحت تلك القناعة لديه لاتقبل الجدل، وكسب الحزب صديقا مثقفا جديدا ينتمي الى مبادئه ويناضل من أجل تحقيق أهدافه. ولم يكن النضال يتجاوز النقاش في حلقات الرفاق الذين كان جلهم من المثقفين الذين سافروا الى الخارج للدراسة، فكانوا أكثر وعيا وأقدر على الحوار الذهني الصعب. كانوا يعتبرون أنفسهم طليعة المجتمع وقد شب حماسهم لقيادة طبقة عاملة ضئيلة العدد تتجاذبها مختلف الأحزاب من دينية وقومية واشتراكية وحتى رجعية.

وما كان أحد هؤلاء المثقفين ليكلف نفسه بالذهاب الى مصنع أو قرية ليتعرف أحوالها لبناء لبن المجتمع الجديد. بل ان أقصى نشاطهم كان ينحصر في كتابة المقالات في صحيفة النور أو في مجلة الطريق تحت أسماء مستعارة. ولقد غلب على بعضهم الكسل الشديد فترى أحدهم يكلف ببحث ضمن اختصاصه في الصيف، فلا ينجزه الاّ في الصيف التالي، وكل فرد منهم يطمع برحلة مجانية للبلدان الاشتراكية لقاء ما يقدم من تضحيات حزبية، فاذا ما اجتمعوا في أمسية في مطعم الواحة، أو في منزل أحدهم ساد جوهم المرح والتهكم اللاذع في نقد أنفسهم ورفاقهم

وخصومهم. وكان أحدهم يملك قول كل ما يعتلج في نفسه على شرط أن يضعه في قالب المزاح فيقبله المنتقد بالضحك حينا أو بالـشتيمة أخـرى خلال ضحك الجميع.

قال أحمد موجها حديثه لممتاز رجب وهو الأستاذ الجامعي الذي كان يشكو دائما من عدم قدرته على شراء منزل طالما حلم به هو وزوجتـه الفرنسية.

-ياأخي ، واحدنا يكدح طوال حياته، أنا أعمل وزوجتي تعمـل ولا نملك القدرة على شراء منزل. ماهذه الحال؟

ويبدأ أحمد في إثارته ونرفزته، فما كان من شيء يثيرضحكه ككشف القناع الرقيق الذي لايجيد ممتاز أن يغطي به هنواته الصغيرة، وعاداتـه الليبرالية وادعاءاته.

-إسمع ياممتاز، لاتدع الفقر مثل رفيقنا ستيبان جريجوريـان الـذي يتعمد أن يشاهد الجميع ذلك الشق المرتي في جاكيتته، كي يقال عنه بأنه شيوعي ممتاز. إفتح أمامنا قلبك واخبرنا أين ذهبت برواتبك التي حصلت عليها من عملك في اليونسكو!

ويتململ ممتاز وينقل عينيه بين أحمد وزوجته ويقول:

-ياأخي، لم تدم علينا النعمة. كلها عامان، ماذا تظنني أوفر خـلال عامين في بلاد الغربة وكل شيء غال؟ ضاقت عيونهم علي في رئاسـة الجامعة! الدنيا بيضة بدك تشرقها لوحدك ؟.. خللي دور لغيرك!

-على كل حال أنا واثق أنك وفرت ماتشتري به بيتا. .أم أنك لاتهنأ حتى توفر راتبك مائة بالمائة؟ ووجه ممتاز حديثه الى زوجة أحمد:

-لاتصدقي هذا الكافر!

كان ممتاز يقوم بواجب المضيف، ويحمل أطباق الفاكهة والحلـوى من زوجته ويضعها على الطاولة وقد بدا عليه التوتر:

-هل السمان المجاور لبيتي أفضل مني؟ يملـك شـراء منـزل ولا أستطيع أنا خريج السوربون! لماذا تزوجت هذا الرجل يامدام؟ ليساعدك الله عليه، فقر وصلع ولسان جارح مثل السكين، انه قادر على أن يـذبح ثورا بلسانه.

وقهقه أحمد:

-لعنك الله! تحاول أن تفسد المرأة على زوجها!

فيقول ممتاز وهو ينقل الحلوى بملقط الى صحن مها:

-هل أكذب؟ لو كانت عملية لتزوجت تاجرا من سـوق الحميديـة. ماذا يمكنك أن تقدم لها، الهم وعذاب القلب؟

-لاعليك، انها راضية.

وتهز مها رأسها مبتسمة فيعلق ممتاز:

-طبعا ماذا يمكنها أن تقول؟ عندما تقع المهـرة الحـرة لا تتـأوه. يامسكينة لم تري منه شيئا.. كنا ندعو الله عـشية وضـحاها أن يبتليـه بزوجة تريه نجوم الظهر فرد الله كيدنا الى نحرنا.. ان الدنيا حظوظ!..

ويرمي أحمد بنكتته اللاذعة:

-ياناس والله ظلم.. أستاذ ممتاز في الحقيقة مظلـوم، رجـل فقيـر لايملك شروى نقير.. كم حزنت حين قرأت البارحة مذاكرة ابنه سـمير في الإنشاء التي أطلعني عليها مدرس العربية "نحن عائلة فقيرة، خادمتنا فقيرة، وطباخنا فقير وسواقنا فقير ولا نستطيع أن نشتري بيتا فـي أبـي رمانة كما يفعل جارنا السمان أبو نذير".

واستدارت عينا ممتاز حتى أصبحتا كعيني سمكة:

-خرب الله بيتك، من أين جئت بهذه القصة؟ غدا تدرج فـي البلـد ويصدقها الناس.

-هل أكذب؟ ماذا ينقصك؟ عامان في اليونسكو، وعامان في الأردن ومثلها في السعودية.

ويحتج ممتاز وكأنما أخذ بذنبه:

-ياأخي أبيع قوة عملي.. أحرق خلايا دماغي.

فيزيد أحمد في تأجيج غيظه:

-أترك مكانا لغيرك، حشوت جيوبك بما فيه الكفاية، أو كـف علـى الأقل عن ترديد لازمة الفقر الممجوج..

ويكاد ممتاز يطبق على عنقه، ويقول في لهجة غاضبة نصفها مزاح ونصفها جد:

-أنت تحسدني.. عين الحسود لاتسود.

-أنا أحسدك! والله لاأرضى أن ترشوني منظمة إمبريالية، أو أعمـل عند ملوك تبع.

وبدا لمها أن المزاح يأخذ شكل مبارزة كلامية بين أحمد وممتاز وأن الرفاق وزوجاتهم يأخذون دور الشهود. قال ممتاز:

-أنت هاوي فقر.

-أفضل من أكون تاجر علم.

-العلم ليس له وطن.. ولكنك تحمل رواسب شوفينية.

-شوفيني الذي يحب بلاده! شوفيني من يتحرق لثروات وطنه العربي يبيعها التجار بأبخس الأثمان لتبقى لهم عروش وتيجان مـن ورق! لـم يعرف العالم كله طبقة طفيلية عاهرة كتلك الطبقة.. لقد كانت قراصـنة البحار الذين بنوا البرجوازية الرأسمالية في أوروبا أشرف منها، شجعانا

يعرضون أرواحهم للتهلكة، أما تجار بترولنا فليسوا أشاوس الاّ في خمارات أوروبا وبيوت دعارتها.. باهظة تلك الآلام التي يحملونها للشعوب العربية، يكرسون تخلفها وتجزئتها وتبعيتها.. كيف يمكن لعيني أن تقع في عيني أحدهم دون أن يتملكني القرف والغثيان؟ أما أن يكونوا أولياء نعمتي فلا والله. انني أفضل أن أبيع الفلافل على باب التجهيز.

-بأي حق نضع أنفسنا أوصياء عليهم؟ هل البترول بترولنا؟

-لا، انه بترول الأميركان!

كانت لهجته ممتلئة بالسخرية وأردف:

-انهم أحق به من الشعوب العربية، ومن أجل هذا على شعب فلسطين أن يتشرد، ومن أجل هذا علينا أن نتحمل انقلابا وراء انقلاب، وقردا بعد قرد يركب أكتاف الناس الى الألوهية. أخي أين تذهب؟ أنت لاتزال تفكر بأسلوب القرون الوسطى. كل إقطاعية بمفردها. ان ما يجري هناك يلقي بظلاله السوداء علينا. نحن في عصر الإحتكار. علاقتنا مع احتكار عالمي، نحن وجهه السلبي، نحن البلد المستباح لنهبه. ان الاحتكار الذي يستنزف آبار السعودية والعراق والخليج لن يسمح بأن تلد سوريا حكما تقدميا، أو أن تحلم بوحدة، أو تطور اقتصادها. نحن شبكة واحدة من منابع البترول الى مصبه في السفن، فكيف لايكون لي الحق وحياتي وحياة الملايين تتأثر بما يجري هنا وهناك أن أناقش الوضع هنا وهناك؟

وحاول ممتاز أن يغير الموضوع الذي لاتشارك فيه النساء فالتفت الى مها وقال:

-أرأيت يامدام؟ لاأحد يقدر عليه.. لسانه مبرد.

-أنت ترى كما أرى والاّ كنت متطفلا على التقدم، ولكنني لاأتـرك مصالحي الخاصة تسدل نقابا على عيني وأضع قدما عند التقدميين وقدما أخرى عند الرجعيين. ان التوفيق بين المصلحتين تجعل الانسان خرفا.

وثار ممتاز لعاصفة الضحك التي دغدغت جوانح الرفـاق للطريقـة التي عبر فيها أحمد بعينيه الساخرتين عن موقف ممتاز من التقدم وهـو يقف منتصبا مفرجا بين ساقيه.

-ياجماعة أنصفوني. كفى تستمعون الى هذا المشاغب. غدا يـأتي دوركم فتقولون "لقد أكلنا يوم أكل الثور الأبيض"..

وتغيرت لهجة أحمد فجأة، وتلونت بعاطفة ودية صادقة:

-يامتاز، إهدأ ببلادك، والله اشتقنا لك، كان ينقصنا شيء ما بدونك. فقط لاتسمعنا شكوى فقرك، وتفعل ما يفعله الأخ ستيبان الذي يدير لي, كلما رأيته, كتفه ليجذب انتباهي الى التمزق المرتي في سترته!..